الفصل الثامن عشر

الحركات الجماهيرية النافعة والضارة

obeikandl.com

obeikandl.com

المرحلة الديناميكية وما يواكبها من فساد وعقم

117

يُعنى هذا الكتاب، أساسًا، بالمرحلة الديناميكية من الحركة الجماهيرية، وهي المرحلة التي يصوغها ويهيمن عليها المؤمنون الصادقون. تنزع الحركات، مهما كان نوعها، في هذه المرحلة إلى إظهار خصائصها المشتركة التي حاولنا تلخيصها. يبدو من الواضح الآن أنه مهما كانت الأهداف الأصلية للحركة نبيلة، ومهما كانت النتائج التي حققتها جيدة، فإن مرحلتها الأولى تبدو لنا غير جذابة، إن لم نقل شرّيرة.

والمتطرّف الذي يطبع هذه المرحلة بطابعه هو نموذج إنساني لا يثير التعاطف. إنه رجل قاسٍ، معتد برأيه، يصدق كل ما يقوله، كثير الجدل، وضيع ووقح. كثيرًا ما يكون المؤمن الصادق على استعداد للتضحية بأقاربه وأصدقائه في سبيل قضيته المقدّسة. إن الوحدة المطلقة والاستعداد التام للتضحية بالنفس اللذين يعطيان الحركة الديناميكية اندفاعها الذي لا يقاوم لا يمكن تحقيقهما، عادة، إلا بالتضحية بأشياء كثيرة جميلة وثمينة هي ما تميز الوجود الفردي للإنسان. لا يمكن لحركة جماهيرية، بصرف النظر عن سمو عقيدتها وأهدافها، أن تحتفظ بطيبتها إذا طالت مرحلتها الأولى، أو إذا بقيت بعد سقوط النظام. وفي الحركات الجماهيرية التي نعدها اليوم

جيدة ونافعة كالإصلاح الديني، أو الثورة الإنجليزية، أو الثورة الفرنسية، أو الثورة الأمريكية، وكثير من الحركات القومية خلال القرن التاسع عشر، لم تطل المدة الديناميكية برغم أنها كانت مطبوعة بطابع التطرف الدموي. يعرف قائد الحركة الجماهيرية الذي يخدم شعبه ويخدم الإنسانية، لا متى يبدأ الحركة فحسب، بل يعرف، مثل غاندي، متى ينهي مرحلتها الديناميكية(*).

عندما تحتفظ الحركة الجماهيرية عبر عدة أجيال بالطابع الذي صاغته المرحلة الديناميكية (كما هو الحال مع الكنيسة السلطوية خلال القرون الوسطى) فإن النتيجة ظهور مدة من الجمود وبداية عصر مظلم. لنا أن نقرر، عندما نشاهد مدة من الإبداع الحقيقي مقترنة بالحركة الجماهيرية، أنها تسبق المرحلة الديناميكية، أو على الأغلب تأتي بعدها، عندما تكون المدة الديناميكية قصيرة لا تتميّز بطابع دمويّ مُدمر، فإن نهايتها، خاصة عندما تكون مفاجئة، كثيرًا ما تثير موجة من الإبداع. وتبدو هذه الملاحظة صحيحة،

(*) يمكن، وفقًا لتحليل المؤلف أن نعدّ الملك عبدالعزيز آل سعود -رحمه الله- قائد حركة جماهيرية ديناميكية وأدرك مع الانتهاء من توحيد المملكة أن المرحلة الجديدة تتطلب الانتقال من الثورة إلى الدولة، فألجم حدة المتطرفين، وانصرف إلى بناء الدولة (المترجم).

سـواء انتهـت الحركة بالنجـاح أو الفشل. ومـدة الإبداع التي تأتـي بعد نهاية الحركة النشطـة لا علاقة لها بالمبادئ المثالية التـي نـادت بها الحركة أو مـا واكبها من حيويـة، بل تعود إلى استرخـاء الانضبـاط الاجتماعـي وتحريـر الفـرد مـن الجو الخانق، جو الطاعة العمياء واحتقار النفس وازدراء الحاضر. أحيانًـا، يصبح الحرص على ملء الفراغ الذي تتركه القضايا المقدّسة التي انتهت أو هجرت حافزًا على الإبداع.

إن المرحلـة الديناميكية، نفسها مرحلة فقيرة في الإبداع، أدرك تروتسكـي أن مراحل التوتر العالي في مشاعر الجماهير لا تـترك مجالًا للتفكير والتأمل. (تعاني حوريات الإبداع، حتى حوريـة الإبداع الصحفي ذات العظـام الصلبة خلال الأوقات الثوريـة)[1]. فجع كل مـن نابليون[2] وهتلـر بالمستوى الهزيل لـلأدب والفن المنتجين في فترتيهمـا البطوليتين وأرادا إبداعًا عظيمًا يتمشى مع الأحداث العظيمة. لم يكن لديهما أدنى قدر مـن المعرفة أن الجو الذي يحيـط بالحركة الجماهيرية يخنق روح الإبـداع ويقضي عليها. ولنا مثال على ذلك: كان ملتون في سنـة 1640م شاعـرًا واعدًا عظيمًا، انتهـى من تحرير مسودة

(1) Leon Trotsky, The History of the Russian Revolution (New York: Simon And Schuster, Inc, 1932), Preface

(2) «كتب نابليون إلى قائد الشرطة مستغربًا عدم وجود نهضة أدبية مزدهرة في أنحاء الأمبراطورية وطلب منه العمل على إيجادها، انظر:
Jacques Barzun, of Human Freedom Boston: Little, Brown & Company, 1939), p. 91.

عملـه الكبـير (الفردوس الضائـع)، ثم أمضـى عشرين سنة عقيمة يحرّر الكتيبات غارقًا حتى عنقه (في بحر من الضجيج والجدال الصاخب) خلال الثورة الإنجليزية[1].

118

إن تأثـير الحركـة الجماهيريـة النشطـة علـى العمليـة الإبداعية تأثير بعيد المدى يتخذ عدة أشكال:

أولًا: يستنـزف التوتر الذي تثـيره الحركة الطاقات التي كانـت ستتجـه إلى العمل الإبداعـي. إن التوتـر يؤثر في العمل الإبداعي قدر ما يؤثر فيه التهتك والانحلال.

ثانيًـا: تحط الحركة من قيمة الإبـداع الحقيقي وتحل محله الأدبيات التي تخدم الحركة. لا بد لكل من الأدب والعلم والفن أن يصطبغ «بالواقعية»، وأن يصبح جزءًا من الدعاية. لا ينتج الكاتب أو الفنـان أو العالم، إذا كانوا مـن المؤمنين الصادقين للتعبير عن النفـس، ولا لخلاص الـروح، ولا للبحث عـن الحقيقة والجمال. مهمة كل هؤلاء أن ينذروا وينصحوا ويناشدوا ويمجدوا ويشجبوا.

ثالثًـا: عندما تفتح الحركة آفاقًا جديدة تستغرق الجهود (كالحـرب أو الاستعمـار أو التصنيـع) فإن هنـاك استنزافًا إضافيًا للطاقة الإبداعية.

(1) «John Milton», Encyclopaedia Britannica.

رابعًا: تكفي حالة التطرف، في حد ذاتها، لخنق كل أشكال العمل الإبداعي. يزدري المتطرّف الحاضر كله، ويعمى عما في الحياة من جمال وعمق. تبدو الأشياء التي تثير خيال المبدع في نظر المتطرّف تافهة أو فاسدة. (يجب على كتابنا أن ينتظموا في الطابور العسكري، وكل من يتوقف في الطريق لقطف الزهور يعدّ فارًّا من الخدمة. هذه الكلمات التي قالها كونستانتين سايموتوف تعكس أفكار المتطرّف وكلماته عبر العصور. قال الحاخام جبكوب (القرن الأول بعد الميلاد): (إن الذي يتمشى في الطريق... (ويقطع دراسته للتوراة) قائلًا: (ما أجمل هذه الشجرة!) أو (ما أجمل هذا الحقل...!) يصبح مذنبًا في حق نفسه)[1] كان بوسع القديس برنارد أن يسير طيلة النهار بقرب بحيرة جنيف دون أن يرى البحيرة. وفي كتابه (إبداع الفنون) يروي المؤرخ والفيلسوف البريطاني ديفيد هيوم قصة الراهب (الذي وجد نافذة في زنزانته تطلّ على منظر جميل، فأخذ على عينيه عهدًا ألا يلتفتا إليها أبدًا). إن عمى المتطرّف يمنحه القوة؛ لأنه لا يرى العقبات في الطريق، ولكنه سبب للعقم الفكري والجفاف العاطفي.

(1) Pirke Aboth, The Sayings of the Jewish Fathers (New York: E. P. Dutton & Company, Inc 1929), p. 36.

يعتدّ المتطرّف بعقله، ولهذا فهو لا يستطيع أن يبدأ التفكير من جديد. وسبب هذا الاعتداد هو اعتقاده الراسخ أن الحياة، والكون بأكمله تخضع لقانون بسيط هو القانون الذي يؤمن به. وهكذا يصبح المتطـرف محرومًا من تلك الفترات المثمرة من البحث العقلي، حيث يكـون العقل مستعدًا لجميع ردود الفعل، ومفتوحًا على معادلات جديدة وبدايات جديدة.

119

عندما تظهر الحركة الجماهيرية أي نوع من أنواع الابتكار فهو، عادة، ابتكار في التطبيق أو في الكمّ. إن المبادئ والأساليب والتقنيات التي تستخدمها الحركة الجماهيرية وتستغلها هي، عادة من إنتاج إبداع كان، أو لا يزال خارج دائرة الحركة. تنزع جميـع الحركات الجماهيرية إلى التقليـد السافر الذي أصبح مرتبطًـا في الأذهان باليابانيين، يقلد النازيـون والشيوعيون، حتـى في حقل الدعاية، أكثر مما يبتكـرون، ويسوقون القضية المقدّسـة التي تبنوها كما يسوق المعلـن الرأسمالي نوعًا معينًا مـن الصابون أو من السجائـر[1]. إن الكثير مما نعدّه جديدًا في الأساليـب التـي يتبعهـا النازيـون والشيوعيـون يجيء من أنهـم يديرون (أو يحاولون أن يديـروا) أمبراطوريات شاسعة

(1) Eya Lips, Savage Symphony (New York: Random House, 1938), p. 18.

بالطريقة ذاتها التي يدير بها فورد أو دوبونت أمبراطوريته الصناعية. ولعلّه من الصواب أن نقول: إن نجاح التجربة الشيوعية سيعتمد، دومًا على الإبداع الطليق الذي ينبع من خارج العالم الشيوعي. يعتقد رجال الكرملين المتبجحون أنهم يظهرون تسامحًا حين يقولون: إن الرأسمالية ستبقى جنبًا إلى جنب مع الشيوعية. والحقيقة أنه لو لم توجد مجتمعات حرة خارج العالم الشيوعي لكان الشيوعيون سيجدون من الضروري إيجادها، ولو بمرسوم من الكرملين.

بعض العوامل التي تحدد طول المرحلة النشطة

120

عندما تسعى الحركة الجماهيرية إلى تحقيق هدف ملموس مُحدد، فإن مرحلتها الديناميكية تكون، عادة، أقصر منها في الحركة التي تسعى خلف أهداف غائمة وغير واضحة. ولعلّ عدم وضوح الهدف أمر ضروري لنشوء التطرف الدائم. قال أوليفر كرومول: (لا يذهب الإنسان إلى أبعد مدى إلا حين يجهل إلى أين هو ذاهب)[1].

عندما تستهدف الحركة تحرير الأمة من الطغيان، الداخلي أو الخارجي، أو صدّ اعتداء، أو تحديث مجتمع

(1) Quoted By J. A. Cramb, The Origins And Destiny of Imperial Britain (London: John Murray, 1915), p. 216.

متخلـفّ، فمن الطبيعي أن تنتهـي مع نهاية الصراع مع العدو، أو إعـادة تنظيم المجتمـع. من الناحية الأخـرى، عندما يكون الهدف إيجاد مجتمع مثالي تسوده الوحدة الشاملة والتضحية بالـذات، سـواء كان مجتمعًا دينيًّـا أو شيوعيًّـا أو دولة حربية كدولة هتلر، فإن المرحلة الديناميكية لا تنتهي عند حد. عندما تعدّ الوحدة والتضحية بالنفس أمرين ضروريين لبقاء المجتمع، فإن النتيجة هي (قدسنة الحيـاة اليومية، أي تحويل القضايا العادية إلى قضايا مقدّسة، أو عسكرة المجتمع.

وفي أيّ من الحالتـين سيبقى النمط الذي شهدته المرحلة الديناميكيـة ثابتًـا ودائمًـا. كان المفكـران جيكـوب بيركهارد وأرنست رينان مـن القلائل الذين تمكنوا في جو التفاؤل الذي ساد النصف الثاني من القرن التاسع عشر من معرفة ما سيجيء في القرن القادم. توقع بيركهارد ظهور المجتمع العسكري: (إن لديّ هاجسًا يبدو سخيفًا ولكنه يرفض، بإصرار، أن يفارقني.. مـا سوف يجيء هو تنظيم متقن ومدروس للشقاء، الذي يتخذ صورة تنظيمات عسكرية وملابس عسكرية، وأيام تبدأ وتنتهي بقـرع الطبول العسكرية»[1] أما رينان فتنبأ بما هو أبعد. شعر أن الاشتراكيـة ستكـون دين الغرب القادم، وبمـا أنها ستكون

(1) Quoted by James Hasting Nicholas In His Introduction To the English Transilation of Jacob c. Burck Hardt's Force and Freedom (New York: Pantheon Books, 1943), p. 40.

علمانيــة فســوف تكــون النتيجة إضفــاء طابــع القداسة على السياسة والاقتصاد، كما أنه خشي من قيام صحوة كاثوليكية تقــف في وجه الديــن الجديد: (لا بد أن ترتجف خوفًا. في هذه اللحظة، ربما يصاغ دين المستقبل، دون أن يكون لنا أي دور في صياغتــه... إن للسذاجة جذورًا عميقة. وقد تجلب الاشتراكية معهــا، بتواطئ مــع الكاثوليكية، قرونًا وسطــى جديدة، يجيء معهــا البرابــرة والكنائس وتشهد غــروب الحريــة والفردية، وباختصار غياب الحضارة بأسرها)[1].

121

نلاحــظ أنه عندما كانت هناك محــاولات لإيجاد مجتمع مثالي كانت المحاولــة تتم على نطاق شاسع وتشمل شعوبًا غير متجانسة، كما كانت عليه الحال في الثورات الفرنسية والروسية والنازية. يبدو أنه عندما تتم المحاولة من جانب دولة صغيرة، وفي وجــود شعب متجانــس، فإن النتائج لا تكــون مأساوية. إن خــوف الدولة الصغيرة من تبديد رأسمالها البشري الصغير، وحاجتهــا الملحّة إلى الانسجام والتآخــي، وشعور أبناء الشعب أنهــم ينتمــون إلى أســرة واحدة – كل هذه عوامــل تجعل قيام تعــاون تام بين الناس أمرًا ممكنًا دون اللجوء إلى (القدسنة)

(1) Ernest Renan, History of the People of Israel (Boston: Little, Brown & Company, 1888- 1896) vol v. p. 360.

أو (العسكـرة). ويحسن الغـرب صنعًا لو تـرك المجال للدول الصغـيرة المتجانسـة المتحضـرة وحدهـا، لتقـوم بتجربـة النظريـات الاجتماعيـة الجديدة. إن فكـرة النموذج الصغير للمصنع، التي يستفاد منها في عمليات التصنيع الكبيرة يمكن أن يستفـاد منها في التطـور الاجتماعي. ولا يجـب أن نستبعد فكـرة مجتمعـات صغـيرة ترسم الطريـق أمام الغـرب، فقد كان هـذا هو النمط السائد عبر مدة طويلـة. تلقَّى الغرب من الـدول الصغيرة في الشرق الأوسـط واليونان وإيطاليا الديانة والمكونات الرئيسة لحضارته وثقافته.

وهنـاك، على ما يبـدو علاقة أخـرى بين نوعيـة الجماهير وطبيعـة الحركـة الجماهيرية النشطة ومدّتهـا. إننا أمام حقيقة تقـول: إن اليابانيـين والروس والألمـان الذيـن سمحـوا لحركـة جماهيريـة نشطـة بالبقـاء دون أي مقاومة كانوا مهيئـين نفسيًّا للخضوع والانضباط الحديدي عبر عدة أجيال قبل ظهور الحركة الجماهيريـة. كان ستالـين مـدركًا تمـام الإدراك أن استعـداد الجماهـير الروسيـة للطاعة كان خـير معين له: (كيـف نستطيع أن نقـارن - قال لينين بصـوت مرتفع - جماهـير أوروبا الغربية بجماهيرنـا الصابرة المتعودة على الحرمان؟)[1] إن كل من يقرأ

(1) Angelica Balaban off, My Life As Rebel, (New York: Harper and Brothers, 1938), p. 281.

ما قالته الكاتبة السويسرية الفرنسية مدام دي ستايل عن الألمان قبل أكثر من نصف قرن يدرك أنهم كانوا المادة الخام المثالية لحركة جماهيرية دائمة: (يحب الألمان الخضوع بشدة. ويلجؤون إلى نظريات فلسفية؛ لكي يبرّروا شيئًا لا علاقة له بالفلسفة: احترام القوة والخوف الذي يحوّل هذا الاحترام إلى إعجاب)[1].

لا يمكن القطع أنه لم يكن بوسع هتلر أو ستالين الظهور في دولة تملك تراثًا طويلًا من الحرية. ما يمكن قوله بلا تردد: إنه في دولة كهذه ربما كان بوسع هتلر أو ستالين الظفر بالسلطة، إلا أنه لم يكن بوسع أي منهما الاحتفاظ بها حتى النهاية. إن أي تغيير إيجابي في الأوضاع الاقتصادية سيؤدي -بلا شك- إلى إحياء تقاليد الحرية، وتقاليد التمرد. ليس للفرد الذي يقاوم ستالين في روسيا أي انتماء يلوذ به مما يجعل قدرته على مقاومة القمع معدومة، إلا أن الفرد في المجتمعات التي تنعم بتراث من الحرية، عندما يقاوم القمع لا يشعر أنه خليّة آدمية منعزلة، وإنما جزءٌ من شعب كامل، ومن أسلافه المتمردين.

122

إن شخصية القائد، على الأغلب، عامل حاسم في تحديد طبيعة الحركة الجماهيرية ومدتها، إن القادة النادرين مثل

(1) Quoted by w. R. Ngc, «Patriotism» Nineteen Modern Essays, Ed. W.A. Archbol d (New York: Longmans, Green, & Company, 1926) p. 213.

لنكولـن وغاندي لم يكونوا على استعداد لإيقاف الشر المتأصل في الحركـة الجماهيريـة فحسب، بـل كانوا راغبـين في إنهاء الحركـة مجرد تحقيـق هدفها. هـؤلاء القادة مـن القلة التي يصـدق عليهـم القـول: إن (السلطة منحتهم عظمـة وسخاء في الـروح)[1]. ومـن الناحية الأخرى، نجـد أن عقلية ستالين البدائية وقسوته القبلية كانتا عاملين رئيسين في إطالة المرحلة الديناميكية من الحركة الشيوعية. من العبث أن نحاول التكهن بمصير الثورة الروسية لو طال الأجل بلينين عقدًا أو عقدين.

يشعر المرء أن لينين لم يكن ينطوي على روح همجية، كالتي ظهرت بوضوح مع هتلر وستالين، تلك الروح التي تجعل البشر كما قال الفيلسوف اليوناني هيركالبتس: (شهودًا أشرارًا على أمثال البشر). صاغ ستالين خلفاءه على مثاله، وبإمكان الشعب الروسـي أن يتوقع نوعية القيادة نفسها خلال العقود القادمة. أدّى مـوت كرومول إلى انتهاء الثورة الإنجليزية، كما أدّى موت روبسبير إلى نهاية المرحلـة الديناميكية من الثورة الفرنسية. لو مات هتلر في منتصـف الثلاثينيات لتعرضت النازية، تحت قيـادة جورنج، لتغيـيرات رئيسة في مسارها، ولـكان بالإمكان تفادي قيام الحرب العالمية الثانية. إلا أنه من الناحية الأخرى

(1) John Maynard, Russia In Flux (London: Victor Gollancz, Ltd, 1941) p. 29.

ربمـا استطاع ضريح هتلر مؤسس الديانة النازية، أن يثير من الشـرور ما يفوق بكثير فظائع الحـرب العالمية الثانية والدمار الذي سببته.

123

تؤثـر الطريقـة التي تبـدأ بهـا الحركـة الجماهيرية في مدتهـا وكيفيـة انتهاء مرحلتهـا الديناميكية. عندمـا نرى أن حركـة الإصـلاح البرتستانتي والثـورة الإنجليزيـة والثورتين الأمريكيـة والفرنسية و كثيرًا من الثورات الوطنية انتهت، بعد مـدة ديناميكية قصـيرة، بنظام اجتماعي يتميـز بالمزيد من الحريـات الفرديـة، فإن لنا أن نرجع السبـب إلى تحقيق المثل والأهداف التي سادت خلال المرحلة الأولى من المرحلة. بدأت جميع هذه الحركات بتحد ي نظام قائم مستقر وإزاحته. تمت إزاحة النظام بسرعة، وبقيت ذكرى الأيام الأولى للحركة حيّة في أذهان الناس، ولهذا كانت النتيجة النهائية ظهور الحريات الفردية. وعلى النقيض، لم يكن هناك هدف محدد يتجه إليه التحـدّي عند ظهور المسيحية، لم تبـدأ بإزاحة ملك، أو نظام، أو دولـة، أو كنيسـة. كان هناك قديسـون، ولكنهم (لم يكونوا ثـوارًا يتحـدون سلطـة قائمة باسـم شعوب العـالم كلها)[1]،

(1) Sir J. R. Seeley, Lectures and Essays (London: Macmillan, 1895), p. 81.

ولهـذا السبـب، ربما، ظـلّ النظـام السلطـوي الـذي أدخلته المسيحيـة قائمًا بلا تحدٍّ عبر ألف وخمسـ مئة سنة. ولم يكن تحريـر العقل المسيحي الـذي تم في نهاية الأمـر مستلهمًا من الأيـام الأولى للمسيحيـة، ولكن من نمـاذج الاستقلال المثيرة في التاريـخ اليونـاني/ الروماني. والقوميـة الألمانية، بدورها، علـى خلاف القوميات في معظم الـدول الغربية، لم تبدأ بعمل مثير يتحـدى السلطة القائمـة، بل انطوت منـذ بدايتها تحت جنـاح الجيش الروسي. تجلت بـذرة الحرية الفردية في ألمانيا في الثورة البروتستانتيـة لا في القومية. من ناحية أخرى بدأت حركة الإصـلاح البروتستانتي، والثورات الأمريكية والفرنسية والروسية، ومعظم الحـركات الوطنية، بتحدٍّ مثير مذهل عبَّر عنه الأفراد، وظلت ذكراه حية في العقول.

وبهذا المعيـار، فعودة الحريات الفرديـة في روسيا ليست بالأمر المستحيل(*).

حركات جماهيرية نافعة

124

يبـدو الرجال الذيـن لا يعتنقون قضايـا مقدّسة في عيون المؤمنين الصادقين رجالًا يفتقـرون إلى الصلابة والشخصية

(*) غنيّ عن الذكر أن نبوءة المؤلف تحققت بانهيار النظام الشيوعي في روسيا (المترجم).

مستعديـن لاتبـاع الرجـال المؤمنـين. ومـن ناحيـة أخـرى، يشعـر المؤمنون الصادقـون من كل الأطيـاف بقوة خصومهم ويحترمونهم برغم ما يشعـرون به نحوهم من كراهية وبرغم استعدادهم للاشتباك معهم. اعتبر هتلر الشيوعيين أندادًا له وأعطى تعليمات بضم الشيوعيين السابقين إلى الحزب النازي بـلا تردد. كما رأى ستالين، بـدوره، أن الألمان واليابانيين هما الأمتان الوحيدتـان الجديرتان بالاحترام. يقول دستوفيسكي على لسان الأسقف يتهون: (إن الإلحاد الواضح جدير بالعناية والاهتمـام أكثر من مجرد التشـكك... إن الملحد الحقيقي قد لا تفصـل بينه وبين الإيمان سوى درجة واحدة... أما المتشكك الـذي لا يعبـأ بشؤون العقيدة فلا يوجد لديـه أي نوع من أنواع الإيمان، بل يوجد الخوف المفرط)[1].

كل المؤمنـين الصادقين في أيامنا، سـواء كانوا شيوعيين، أو نازيين، أو فاشيين، أو يابانيين أو كاثوليكًا، أدانوا في الماضي (والشيوعيـون حتـى الوقـت الحاضر) خـواء الديمقراطيات الغربية اتهموا الشعوب الديمقراطية بالترف والشغف بالملذات والأنانيـة على نحو أفقدها القدرة على الموت في سبيل الأمة أو الله أو القضية المقدّسة. يصور هذا العزوف عن التضحية على

(1) Fedor Dostoye vsky, The Possessed, Modern Library Edition (New York: Random House 1936) p. 698.

أنه دليل على تفسخ من الداخل، على انحلال أخلاقي وجسدي. وتصور الديمقراطيات الغربية على أنها كيانات قديمة فاسدة ومنحلة. والنتيجة هي أن الديمقرطيات عاجزة عن أن تهزم جموع المؤمنين الصادقين المستعدين للعمل الجماعي والموت، والتي توشك أن ترث الأرض.

في هذه الاتهامات قليل من الحق وكثير من الباطل. إن الاستعداد للعمل الجماعي والتضحية بالنفس خصيصتان من خصائص الحركة الجماهيرية، كما أوضحنا فيما سبق. من ناحية أخرى، تتكون الديمقراطيات، في الظروف الطبيعية، من أنظمة مؤسسية تضم أفرادًا أحرارًا على نحو أو آخر. إلا أنه عندما يتعرض وجود الدولة الديمقراطية للخطر ويجب عليها أن توحّد شعبها وتغذي فيه روح التضحية بالنفس، فإنها تتحوّل إلى كيان يشبه الكنيسة المتشددة أو الحزب الثوري. وعملية «القدسنة» هذه لا تحمل معها، برغم بطئها وصعوبتها، تغييرات جذرية عميقة. حتى المؤمنون الصادقون لا يزعمون أن انحلال الديمقراطيات انحلال عضوي دائم. كانت ألمانيا طبقًا للمحللين النازيين، منحلة في العشرينيات، وعادت إلى العنفوان في الثلاثينيات. لا شك أن عقدًا واحدًا لا يكفي لإحداث تغييرات بيولوجية أو ثقافية جذرية في شعب من الملايين.

يبقى من الصحيح، مع ذلك، أن القدرة على إيجاد حركة جماهيرية في وقت قصير، في مدة كفترة هتلر، أمر بالغ

الأهمية. إن قدرة القائد في المجتمع الديمقراطي على «قدسنة» القضايا أمر ضروري، حتى عندما لا تظهر الحاجة إلى ممارسة «القدسنة» فعليًّا. ولعله من الصحيح أيضًا أن الفكر الفلسفي المتعمق، أو الواقعية التي يتصف بها رجال الأعمال، تحول بين الإنسان وبين موقع القيادة الوطنية. بالإضافة إلى هذا، قد تكون هناك صفات معينة في المجتمع الديمقراطي تسهّل عملية «القدسنة»، وتطلق العنفوان الوطني. لا يمكن قياس العنفوان في أمة ما إلا بقياس مخزون تطلعاتها. وما قاله هيركاليتس: (ليس من صالح البشر أن يعطوا جميع ما يطلبونه) ينطبق على الدول، كما ينطبق على الأفراد. يضعف عنفوان الأمة عندما تكف عن التطلع بلهفة إلى أشياء تريدها وتكف عن توجيه طاقاتها إلى أهداف ملموسة محددة. لا تبقى الأمة في حالة عنفوان دائم إلا وهي تسير خلف هدف يقود بدوره إلى هدف جديد، حتى عندما تكون قد أشبعت حاجاتها المادّية.

ليس من الضروري أن يكون الهدف ساميًا. إن التطلع إلى ارتفاع مستمر في مستوى المعيشة هو الذي حفظ للأمة الأمريكية عنفوانها. عندما يكون الهدف متواضعًا، ويصبح الإنجاز المطلوب نموذج (الجنتلمان الريفي) في بريطانيا و(المالك المتقاعد) في فرنسا، فإنه يصعب الاحتفاظ باندفاع الأمة وحيويتها. من الناحية الأخرى، فالأهداف المتجددة غير المحددة، تبقي الاندفاع قائمًا في دول مثل أمريكا وروسيا وألمانيا.

125

يمكن للحركة الجماهيرية، كما سبقت الإشارة، أن تكون عاملاً في نهضة مجتمع جامد وتحديثه. وبرغم أنه لا يمكن القول: إن الحركات الجماهيرية هي الوسيلة الوحيدة لإحياء المجتمع، فإنه قد يكون من الصحيح في المجتمعات الكبيرة غير المتجانسة مثل روسيا والهند والصين أن عملية الإحياء تعتمد على وجود حماسة متدفقة بين أفراد المجتمع قد لا تتوافر في غياب الحركة الجماهيرية.

وعندما يكون من الضروري أن يتم التحديث في مدة زمنية قصيرة، فقد تكون الحركات الجماهيرية ضرورية حتى في المجتمعات الصغيرة المتجانسة. وهكذا يمكن أن يكون العجز عن إيجاد حركة جماهيرية في ظروف معينة عيبًا في النظام الاجتماعي. ولعلّه من سوء حظ الصين أن حركتيها الجماهيريتين خلال القرن الأخير (تمرد تايبنج وثورة سن يات سن) تبعثرتا أو قضى عليهما في وقت مبكر. لم تستطع الصين أن تنتج قائدًا مثل ستالين أو غاندي، أو حتى مثل أتاتورك، يستطيع الإبقاء على حركة جماهيرية مدة تكفي لتحقيق الإصلاحات المنشودة. ويرى المفكر الأسباني أورتيجا يا جاست أن عدم قدرة دولة ما على إنتاج حركة جماهيرية قد يرجع إلى أسباب عرقية. يقول أورتيجا عن وطنه أسبانيا:

(كان الـذكاء الأسباني الجماعي، دومًا، قاصرًا ولم يتح له أن ينمو نموًا طبيعيًّا)[1](*).

قـد يكـون التحـرك الشعبـي الحقيقـي عمليـة نهضوية تحديثيـة عندما تترك الحكومـات لتموت موتًـا طبيعيًّا بطيئًا فـإن النتيجـة، عـادة، هـي الجمـود والتفسخ على نحـو قد لا يمكـن علاجه. وبالنظر إلى أن رجال الكلمة يؤدون دورًا كبيرًا في قيـام الحركـة الجماهيرية، كما سبـق أن رأيت، فإن وجود أقلية متعلمة تستطيع التعبير عن نفسها أمر ضروري لاستمرار الحيوية في المجتمع.

سبق أن ناقشنـا التأثير الثوري للمؤسسات التعليمية التي أقامتهـا الـدول الغربية المستعمـرة – وللمـرء أن يتساءل: هل لظهور قادة مثـل غاندي ونهرو أسباب تتعلـق بطبيعة المجتمع الهنـدي، أو أن السبـب، وهـذا مـا أرجحـه، حول طـول بقاء الاستعمار البريطاني. يبـدو أن النفوذ الأجنبي عامل مهم في حركات الإحياء الوطني. نلاحظ خلال نهضة أوروبا من جمود

(1) Jose Ortega Y. Gasset, The Modern Theme, (New York: w. w. Norton & Company, 1931) p. 128.

(*) أستغـرب ملاحظـة المفكـر الأسباني ومؤلـف الكتاب، حول عـدم قابلية العـرق الأسبـاني لاحتضان حركـة جماهيرية، فقد كان كل مـن اليسار واليمـين اللذين اشتبكا في الحرب الأهليـة الأسبانية، التي بدأت في سنة 1936م، يشكل حركة جماهيرية حقيرة (المترجم).

القـرون الوسطى تأثـيرات أجنبيـة مهمة يونانيـة/ رومانية، وعربيـة. وكان النفوذ الغربي عاملًا حاسمًـا في نهضة روسيا واليابـان وعدد من الدول الآسيوية. والنقطة المهمة هنا هي أن التأثير الأجنبي لا يعمل بطريقة مباشرة. لا يكفي دخول أشياء أجنبية مثل الموضات والعادات وطرق التفكير والتصرف.

إن التأثـير الحقيقي للنفوذ الأجنبـي يتجلى في إيجاد أقلية متعلمة لم تكن موجود من قبل، أو في حرمان أقلية مؤثرة موجودة من مزايا النظام القائم. هذه الأقلية المؤثرة هى التي تبدأ عملية الإحياء بإطـلاق حركة جماهيرية. إن التأثـير الأجنبي، بعبارة أخـرى، هـو الحلقـة الأولى مـن العمليـة، أما الحلقـة الأخيرة فتتخـذ، عادة شكل حركة جماهيريـة. وهذا ما حدث في أوروبا: سهّـل التأثير الأجنبي اليونـاني/ الروماني والعربي ظهور رجال كلمة لم يكن لهم ارتباط بالكنيسة، وأبعد عددًا من رجال الكلمة التقليديين من معسكر النظام الكاثوليكي القائم. كانت النتيجة حركة الإصـلاح البروتستانتي التي أيقظـت أوروبا من غفوتها. وفي روسيا أدى النفوذ الغربي (الذي يشمل النظرية الماركسية) إلى زعزعة ولاء المثقفين للنظام القيصري وإلى الثورة البلشفية التـي لا تزال تحكم الأمبراطوريـة الشيوعية. أما في اليابان فلم يؤثـر النفـوذ الأجنبي على رجـال الكلمة، وإنمـا على مجموعة استثنائية من الرجال، منهم الأمبرطور ميجي والمحيطون به.

امتلك هؤلاء الرجال العمليون الواقعيون، الرؤية التي افتقر إليها بيتر الكبير، برغم أنه كان بدوره من الرجال العمليين الواقعيين، ولهذا نجحوا حيث فشل هو. أدرك هؤلاء القادة اليابانيون أن مجرد إدخال العادات والآلات الأجنبية لن يغير مسيرة الحياة في اليابان ولن يدفعها إلى التخلّص من التخلف الذي سيطر عليها عبر قرون طويلة. أدركوا أن (القدسنة) عملية لا بد منها في هذه المحاولة النهضوية الشاملة، ولهذا أطلقوا واحدة من أكثر الحركات الجماهيرية فاعلية في العصور الحديثة. أشرنا في أماكن عديدة من هذا الكتاب إلى شرور هذه الحركة، ومع ذلك فإن من المشكوك فيه أن أي وسيلة أخرى ذات طبيعة مختلفة كانت تستطيع إنجاز التحديث المذهل الذي حققته اليابان. وفي تركيا، بدورها، أثر النفوذ الأجنبي على أتاتورك، الذي كان من الرجال العمليين، وكانت النتيجة النهائية نشوء حركة جماهيرية.

يعدّ المفكر ج.بي.س هالدين التطرف ضمن أربعة مخترعات بالغة الأهمية فيما بين سنتي 3000 ق.م و1400م [1] ويعدّه اختراعًا يهوديًّا/ مسيحيًّا.

(1) J. B. S. Haldane, The Inequality of Man (New York: Famous Books, Inc, 1938), p. 49.

ومن الغريب أن هذا الداء النفسي المخيف، قد يتحول، في سيـاق حركة جماهيرية إلى عامل يستطيـع إيقاظ المجتمعات من الركود وتحديثها.

obeikandl.com